

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ مَاذَا قَدَّمَتْ لِدِينِهَا وَدُنْيَاهَا وَوَطَنِهَا ٢٩ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٤٤ هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللَّيَالِيَّ وَالْأَيَّامَ خَزَائِنُ الْأَعْمَالِ، وَمَرَاحِلُ الْأَعْمَارِ، أَيَّامٌ تَمُرُّ عَلَى أَصْحَابِهَا كَالْأَعْوَامِ، وَأَعْوَامٌ عَلَى أَصْحَابِهَا كَالْأَيَّامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾. إِنَّ الْمُؤْمِنَ الْمَوْفَّقَ هُوَ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ تَقْوَى الْأَحْوَالِ مُنَاسَبَةً لِلتَّذَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّعَاطُفِ، فَيَحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَيُقَيِّمُ وَضْعَهَا، وَيُصَحِّحُ مَسَارَهَا. فَهَلَاكُ الْقَلْبِ فِي إِهْمَالِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَفِي اتِّبَاعِ هَوَاهَا. وَصَلَاحُ الْقَلْبِ بِمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَفَسَادُهُ بِإِهْمَالِهَا، قَالَ ابْنُ حِبَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «رَوْضَةِ الْعُقَلَاءِ»: أَفْضَلُ ذَوِي الْعُقُولِ مَنْزِلَةٌ أَدْوَمُهُمْ لِنَفْسِهِ مُحَاسَبَةٌ.

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ تَصَافَرَتِ الْأَدِلَّةُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَأَقْوَالِ السَّلَفِ عَلَى أَهْمِيَّةِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلُ فِي مُحَاسَبَةِ الْعَبْدِ نَفْسَهُ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَفَقَّدَهَا، فَإِنْ رَأَى زَلَالًا تَدَارَكَهُ بِالْإِقْلَاعِ عَنْهُ، وَالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَالإِعْرَاضِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ، وَإِنْ رَأَى نَفْسَهُ مُقْصِرًا فِي أَمْرٍ مِنْ أَوْامِرِ اللَّهِ، بِذَلِكَ جُهْدُهُ، وَاسْتِعَانِ بَرِّهِ فِي تَكْمِيلِهِ وَتَتْمِيمِهِ وَإِتْقَانِهِ، وَيُقَاسِ بِبَيْنَ مَنْنِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِهِ، وَبَيْنَ تَقْصِيرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ لَهُ الْحَيَاءَ بِلَا مَحَالَةٍ. وَالْحَرَمَانَ كُلَّ الْحَرَمَانَ أَنْ يَغْفَلَ الْعَبْدُ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَيُشَابِهَ قَوْمًا نَسُوا اللَّهَ وَغَفَلُوا عَنْ ذِكْرِهِ، وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى حُطُوظِ أَنْفُسِهِمْ وَشَهَوَاتِهَا، فَلَمْ يَنْجَحُوا، وَلَمْ يَحْضُلُوا عَلَى طَائِلٍ، بَلْ أَنْسَاهُمْ اللَّهُ مَصَالِحَ أَنْفُسِهِمْ، وَأَغْفَلَهُمْ عَنْ مَنَافِعِهَا وَفَوَائِدِهَا، فَصَارَ أَمْرُهُمْ فُرْطًا، فَرَجَعُوا بِخَسَارَةِ الدَّارَيْنِ، وَغُبِنُوا غَبْنًا لَا يُمَكِّنُهُمْ تَدَارِكُهُ، وَلَا يُجْبِرُ كَسْرُهُ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ، الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، وَأَوْضَعُوا فِي مَعَاصِيهِ. اهـ

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَيْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَانَ مِنْ كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: نَكُونُ

عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّ رَأْيِي عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّيِّعَاتِ [الصَّيِّعَاتُ: جَمْعُ صَيْعَةٍ، وَهِيَ: مَعَاشُ الرَّجُلِ مِنْ مَالٍ أَوْ حِرْفَةٍ أَوْ صِنَاعَةٍ]، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافِقَ حَنْظَلَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّ رَأْيِي عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّيِّعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرْشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةَ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْمُفْهِمِ»: «لَكِنْ يَا حَنْظَلَةَ سَاعَةً وَسَاعَةً»، وَقَالَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يُفَكِّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ اللَّهِ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ. هَكَذَا الْكَمَالُ، وَمَا عَدَاهُ تَرَهَاتٌ وَخِيَالٌ. اهـ

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «مُحَاسِبَةُ النَّفْسِ»: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ، فَكَانَ فِي آخِرِ كِتَابِهِ: «أَنْ حَاسِبْ نَفْسَكَ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ الشُّدَّةِ، فَإِنَّهُ مَنْ حَاسِبَ نَفْسَهُ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ فِي الشُّدَّةِ؛ عَادَ مَرْجِعُهُ إِلَى الرِّضَا وَالْغِبْطَةِ، وَمَنْ أَلْهَتْهُ حَيَاتُهُ، وَشَغَلَتْهُ أَهْوَاؤُهُ عَادَ أَمْرُهُ إِلَى النَّدَامَةِ وَالْحَسْرَةِ، فَتَذَكَّرْ مَا تُوَعِّظُ بِهِ لِكَيْمَا تَنْهَى عَمَّا يُنْهَى عَنْهُ، وَتَكُونَ عِنْدَ التَّدْكِيرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ مِنْ أَوْلِي النَّهْيِ». وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «مَثَلْتُ نَفْسِي فِي الْجَنَّةِ، أَكُلُ ثِمَارَهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا، وَأَعَانِقُ أَبْكَارَهَا، ثُمَّ مَثَلْتُ نَفْسِي فِي النَّارِ، أَكُلُ مِنْ زُقُومِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ صَدِيدِهَا، وَأَعَالِجُ سَلَاسِلَهَا وَأَغْلَالَهَا؛ فَقُلْتُ لِنَفْسِي: أَيُّ نَفْسِي، أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدِينَ؟» قَالَتْ: أُرِيدُ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا؛ فَأَعْمَلُ صَالِحًا، قَالَ: قُلْتُ: فَأَنْتِ فِي الْأُمْنِيَّةِ، فَأَعْمَلِي». وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ

مَا كَانَ لَهُ وَاعِظُ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتْ الْمُحَاسِبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ». وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ لِنَفْسِهِ النَّفِيسَةِ: أَلَسْتَ صَاحِبَةً كَذَا؟ أَلَسْتَ صَاحِبَةً كَذَا؟ ثُمَّ ذَمَّهَا، ثُمَّ خَطَمَهَا، ثُمَّ أَلْزَمَهَا كِتَابَ اللَّهِ، فَكَانَ لَهَا قَائِدًا»، وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قَالَ: «لَا يُلْقَى الْمُؤْمِنُ إِلَّا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ: مَاذَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟ مَاذَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَاذَا أَرَدْتُ بِشَرِبَتِي؟ وَالْعَاجِزُ يَمْضِي قُدْمًا لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْمُحَاسِبَةَ الصَّادِقَةَ هِيَ مَا أَوْرَثَتْ عَمَلًا، فَلَا بُدَّ أَنْ تَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَ بِمَا بَقِيَ، وَمَنْ أَصْلَحَ مَا بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَى، وَمَنْ أَسَاءَ فِيمَا بَقِيَ أَخَذَ بِمَا مَضَى وَبِمَا بَقِيَ، وَالْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً، فَأَعْطِ كُلَّ لَحْظَةٍ حَقَّهَا، وَكُلَّ نَفْسٍ قِيَمَتَهُ، فَالْأَيَّامُ مَطَايَا، وَالْأَنْفَاسُ خُطُوتٌ، وَالصَّالِحَاتُ هِيَ رُؤُوسُ الْأَمْوَالِ، وَالرِّبْحُ جَنَاتُ عَدْنٍ، وَالْخَسَارَةُ نَارٌ تَلْظِي، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ لِمُحَاسِبَةِ النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا فَوَائِدَ وَثَمَرَاتٍ عَظِيمَةً مِنْهَا:

الْأُولَى: الإِطْلَاعُ عَلَى عُيُوبِ النَّفْسِ، وَمَنْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى عَيْبِ نَفْسِهِ لَمْ يُمَكِّنْهُ مُعَالَجَتَهَا.
الثَّانِيَةُ: التَّوْبَةُ وَالنَّدَمُ، وَتَدَارُكُ مَا فَاتَ فِي زَمَنِ الْإِمْكَانِ.

الثَّلَاثَةُ: انْكِسَارُ الْعَبْدِ، وَتَذَلُّهُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الرَّابِعَةُ: الزُّهْدُ، وَمَقْتُ النَّفْسِ، وَالتَّخَلُّصُ مِنَ التَّكْبَرِ وَالْعُجْبِ.

الخَامِسَةُ: مَنْ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ يَجْتَهِدُ فِي الطَّاعَةِ، وَيَتْرُكُ الْمَعْصِيَةَ.

السَّادِسَةُ: رَدُّ الْحُقُوقِ إِلَى أَهْلِهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الإِطْلَاعَ عَلَى عَيْبِ النَّفْسِ وَنَقَائِصِهَا يُلْجِمُهَا عَنِ الْغَيِّ، وَمَعْرِفَةَ الْعَبْدِ نَفْسَهُ، وَأَنَّ مَا لَهُ إِلَى الْقَبْرِ يُورِثُهُ تَذَلُّهُ وَعُبُودِيَّةٌ لِلَّهِ، فَلَا يُعْجَبُ بِعَمَلِهِ مَهْمَا عَظُمَ، وَلَا يَحْتَقِرُ ذَنْبًا مَهْمَا صَغُرَ، قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَضِيَ اللَّهُ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ»: وَأَضْرُّ مَا عَلَيْهِ: الإِهْمَالُ،

وَتَرَكَ الْمُحَاسِبَةَ، وَالِاسْتِرْسَالَ، وَتَسْهِيلَ الْأُمُورِ، وَتَمْشِيَّتِهَا، فَإِنَّ هَذَا يُؤُولُ بِهِ إِلَى الْهَلَاكِ،
وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْغُرُورِ، يُغْمِضُ عَيْنِيهِ عَنِ الْعَوَاقِبِ، وَيُمَشِّي الْحَالَ، وَيَتَّكِلُ عَلَى الْعَفْوِ،
فِيَهْمِلُ مُحَاسِبَةَ نَفْسِهِ، وَالنَّظَرَ فِي الْعَاقِبَةِ، وَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ سَهَّلَ عَلَيْهِ مُوَاقَعَةَ الذُّنُوبِ، وَأَنَسَ بِهَا، وَعَسَرَ
عَلَيْهِ فِطَامَتَهَا، وَلَوْ حَصَرَهُ رُشْدُهُ لَعَلِمَ أَنَّ الْحِمِيَةَ أَسْهَلُ مِنَ الْفِطَامِ، وَتَرَكَ الْمَأْلُوفِ وَالْمُعْتَادِ. اهـ.

وَتَفَقَّدُ عُيُوبَ النَّفْسِ يُزَكِّيهَا وَيُطَهِّرُهَا، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاهَا﴾، وَإِنَّ أَضْرَّ مَا عَلَى الْمُكَلَّفِ إِهْمَالُ النَّفْسِ، وَتَرَكَ مُحَاسِبَتِهَا، وَالِاسْتِرْسَالَ خَلْفَ
شَهَوَاتِهَا حَتَّى تَهْلِكَ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْغُرُورِ الَّذِينَ لَا يَحْتَرِزُونَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي،
وَيَتَّكِلُونَ عَلَى الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ، وَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ سَهَّلَتْ عَلَيْهِمْ مُوَاقَعَةَ الذُّنُوبِ، وَصَغُرَ فِي
أَعْيُنِهِمْ وَبَالَهَا. قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي
«الزُّهْدِ» عَنْ قُرَّةِ بِنِ خَالِدٍ، سَمِعْتُ الْحَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ
اللَّوَّامَةِ﴾. «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ، يَقُولُ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟، مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟، مَا
أَرَدْتُ بِحَدِيثِ نَفْسِي؟ فَلَا تَرَاهُ إِلَّا يُعَاتِبُهَا، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قُدَمَا، فَلَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ».

وَالْمُؤْمِنُ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ يُحَاسِبُهَا. وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا،
وَشَقَّ الْحِسَابُ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسِبَةٍ؛ فَتَوَقَّ الْوُقُوعِ فِي الزَّلَّةِ أَيْسَرُ مِنْ
طَلَبِ التَّوْبَةِ، وَالْأَيَّامُ لَكَ لَا تَدُومُ وَلَا تَعْلَمُ مَتَى تَكُونُ عَنِ الدُّنْيَا رَاحِلًا، فَكُلُّ يَوْمٍ تَغْرُبُ فِيهِ
شَمْسُهُ يُنْذِرُكَ بِنُقْصَانِ عُمْرِكَ، وَالْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِأَمْسِيهِ، وَاجْتَهَدَ فِي يَوْمِهِ، وَاسْتَعَدَّ لِغَدِهِ، فَخُذِ
الْأُهْبَةَ، وَأَعِدَّ الزَّادَ لِقُرْبِ الرَّحْلَةِ، وَخَيْرُ الزَّادِ مَا صَحِبَهُ التَّقْوَى، وَأَعْلَى النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةُ
أَخْوَفُهُمْ مِنْهُ.

عِبَادَ اللَّهِ: نَصِيبُ الْإِنْسَانِ مِنَ الدُّنْيَا عُمْرُهُ، فَإِنْ أَحْسَنَ اغْتِنَامَهُ بِمَا يَنْفَعُهُ فِي دَارِ الْقَرَارِ فَقَدْ
رَبِحَتْ تِجَارَتُهُ، وَإِنْ أَسَاءَ اغْتِنَامَهُ وَأَكْثَرَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ بَارَتْ بِضَاعَتُهُ، وَالْمَوْفِقُ مَنْ
حَاسَبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُحَاسِبَهُ اللَّهُ، وَاعْتَنَمَ وَقْتَهُ، وَعَرَفَ دَوَاءَهُ مِنْ دَائِهِ، وَلَمْ يَهْمَلْ فِيَهْمَلْ،
وَالْحَيَاةُ مِيدَانٌ فَسِيحٌ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَالتَّسْوِيفُ لَا يُورِثُ سِوَى النَّدَمِ، وَالتَّوْبَةُ تَمْحُو الزَّلَّةَ.